الفصل الأول

ما هي الأزمة؟

أن تجري أحداث كهذه دون أن نلاحظها أمر بعيد الاحتمال، بل بعيد الاحتمال جداً [1].
تشيرنو يردين ث. س

لو أجرينا مسابقة لأكثر الكلمات شيوعاً في العالم لفازت كلمة أزمة بالمركز الأول دون منازع ولن نجد في تحديد تلك الكلمة أي صعوبة. ولن يحتاج تحديدها إجراء أية استطلاعات للرأي ولن يكون ذلك الموضوع ذا طابع من الإثارة. فالكل من كل المستويات يتناولون كلمة أزمة بالنقد والتحليل ويلقون اللوم عليها في كل الآثام القاتلة ويصلّون للتخلص منها ويلعنونها. فالأزمة أمر مخيف للجميع ولكلمة "أزمة" جاذبية كبيرة.

لقد ارتبطت الأزمات في التاريخ الإنساني بالكوارث والأحداث الكبرى وسواء كانت طبيعية أو من صنع البشر كالحروب والاجتياحات. مما يؤدي إلى تدهور حاد في مستوى الحياة.

لكن الأزمات لا تحدث دون أسباب "وباء، مجاعة" فمثلاً كانت روما تعاني من مجاعة إذا تأخرت القوافل التي تحمل القمح من مصر، كما كانت تبدأ الاضطرابات في العصر البيزنطي التالي بسبب نقص الأغذية حيث كانت هجمات البرابرة تقطع طرقات الإمداد.

كثيراً ماكانت أزمة الحكم تفضي إلى بداية الحرب الأهلية. التي بدورها تستنفد قوى وإمكانات البلاد وتؤدي إلى استفحال الأزمة لتشمل مختلف نواحي

---

[1] ازفيستيا، 10 أيلول 2008.

الاقتصاد. ولكن تأتي بعد ذلك مرحلة تنتهي الحرب وتنتهي معها الفوضى. يتعافى الاقتصاد وتتحسن معيشة الناس تدريجياً. ويستمر الحال هكذا حتى الاجتياح التالي أو الوباء التالي أو المرحلة التالية من الصراع على السلطة.

لم تحدث في التاريخ أبداً أزمة دون أسباب واقعية واضحة. كما أنه لم يحدث أن كان الخبز متوفراً وغالبية الناس تعمل في أماكنها - وهناك أزمة على الأبواب.

ما الذي حدث في هذه الأيام لماذا يتداعى الاقتصاد على كامل مساحة العالم وليس في بلادنا وحدها؟ فلا تنتشر في العالم أوبئة. ولا توجد هجمات من كواكب أخرى سوى في ستوديوهات هوليود. لم تكف الأبقار عن إعطاء الحليب. وما زالت الحقول تجود بمحاصيل وفيرة؛ وما زالت الشركات تضخ النفط والغاز بوفرة في روسيا والسعودية والنرويج وقطر. حتى فرق الروك والمغنيين من كل الأصناف ما زالوا يصدحون للترويح عن البشر. في الظاهر لم يتغير شيء ولكن لدينا أزمة. كل شيء كما كان في الأمس تماماً، رغم ذلك يستعد الناس للأسوأ. فما الذي جرى؟

ليست تلك مسألة سهلة، علينا أن نتبين أصل الأزمة الحالية، ونفهم من المستفيد من هذه الأزمة ولماذا، عندئذٍ يصبح واضحاً كيف نعالجها. كما يمكننا عندئذٍ تقييم أعمال قادتنا من موقع العارف. هل يقوم بوتين ومدفيديف بالخطوات الصحيحة أم يحكمان على اقتصادنا بالإعدام على حد تعبير الصحفيين الليبراليين. لابد لنا من أن نتفحص بعناية أقوال السياسيين وليس فقط أفعالهم.

لقد انتشرت في الأشهر القليلة الماضية من الأزمة في الخطاب الروسي بكثرة كلمات لم تكن تستخدم من قبل. والأصح هذه الكلمات كانت موجودة في السابق ولكنها كانت حكراً على دائرة ضيقة من الاختصاصيين. أما الجمهور الواسع فلم يكن على دراية بهذه المصطلحات.

أكثر التعابير شيوعاً بالطبع- هو تعبير "أزمة" كما رأينا. في الدرجة الثانية يأتي مصطلح "نقص السيولة" لا يبدو لنا واضحاً للوهلة الأولى معنى ذلك،فما تلك السيولة التي أصبحت فجأة غير كافية؟ طالما نتحدث عن الأزمة الاقتصادية فلا بد أن الأمر مرتبط بالاقتصاد المعاصر. لسبب ما نستخدم في الاقتصاد كلمات لا يفهمها الإنسان العادي عملياً. و"نقص السيولة" من هذه التعابير.

والمقصود بهذا التعبير الشبيه ظاهراً بالتعابير العلمية، حالة بسيطة جداً عانى منها كل فرد ولو مرة واحدة في حياته - وهي نقص النقود (السيولة) هذا التعبير مفهوم لأي شخص- لا يوجد نقود، فلماذا يطلقون هذه الأسماء المعقدة على مثل تلك الأمور البسيطة؟

"يعترف البنك المركزي لروسيا الاتحادية بنقص السيولة في السوق" -صرح مدير البنك المركزي سيرغي إيغناتيف.

"نقص السيولة في البنوك - مشكلة مفتاحية للأزمة في روسيا".

"تعالج البنوك الروسية نقص السيولة على حساب المودعين" - تُعنون الصحف مقالاتها الهامة.

تستخدم المصطلحات المبهمة لإخفاء حقيقة الأحداث الجارية، لكي لا تطرح الجماهير أسئلة تصعب الإجابة عليها. تخيلوا مدير البنك الرئيس في البلاد يقول: "لا يوجد نقود في سوق المال في بلدنا". والجرائد تُعنون بالأحرف الكبيرة: "نقص النقود في البنوك - مشكلة مفتاحية للأزمة في روسيا". عندئذٍ سوف يطرح أي شخص أسئلة واعية.

-أين اختفت النقود؟

-أين اختفت تلك السيولة؟

-لماذا أصبحت النقود غير كافية فجأة في كل البنوك تقريباً؟

سيكون هذا غريباً كما في حالة "نقص سيولة البطاطا". ولكن في حالة البطاطا سوف تظهر التبريرات بسرعة بأسبابها المتعددة: الطقس لم يكن جيداً هذا العام. مشكلة في الإنبات، مشكلة الحشرات وما إلى ذلك. ولكن كيف هو الحال مع النقود؟ فقد كانت متوفرة من عام أو نصف عام. وفجأة اختفت، كيف اختفت "السيولة" في روسيا؟

ينبري الليبراليون عندنا للإجابة. القيادة الروسية هي المذنبة في كل ذلك. الخمول لسنوات طويلة، انعدام الرقابة اللازمة. الاعتماد على النفط وحده. قد يكون ذلك مقنعاً بدرجة كافية. ولكن نقص السيولة يشمل كل دول العالم وليس روسيا وحدها.

"أزمة سيولة في العالم كله": "أزمة السيولة في الولايات المتحدة". "مشاكل أسواق المال في الولايات المتحدة سببت أزمة سيولة عالية" - هذه العناوين موجودة بالمئات أو بالآلاف في الإنترنت.

لا يمكن لدولة واحدة مهما كانت فاشلة ومستهترة أن تسبب أزمة عالية. لابد لنا من استيضاح أسباب الأزمة الراهنة وإلا فسوف نقع ضحية الخداع مرة تلو المرة.

ماذا نعرف عن الأزمة الراهنة؟

-اختفت النقود (السيولة) في كل العالم.

-لم تبدأ الأزمة في روسيا "ذات النظام الشمولي"، وإنما في أمريكا "ذات الديمقراطية الكاملة".

من الولايات المتحدة تحديداً بدأت الأزمة بالانتشار في العالم كالتسونامي طالت الأزمة حتى روسيا. لم تولد الأزمة في أرضنا. أي أننا يجب أن نلوم البيت الأبيض وليس الكرملين. ولكننا نعيش في روسيا وما شأن أمريكا بنا يجب أن نلوم السلطات الروسية وليس الأمريكية...

كثرت التفاسير والشروحات المنطقية المتناسقة لما يجري خلال الأشهر الستة الماضية. لن نبحث فيها كلها، وسنكتفي بأكثرها طرافة. إنها أزمة الثقة هي المسؤولة عن كل ذلك. حيث يقال: "حدث نقص السيولة نتيجة فقدان الثقة فيما بين المؤسسات المالية". يقول الأذكياء أن أزمة الثقة بين البنوك والشركات، والأقل ذكاء - يوسعون المفهوم. فيزعمون أن السكان ورجال الأعمال لا يثقون بالسلطة الروسية. ومن هنا تأتي المشاكل. وحالما تنتخب حكومة شعبية حقاً، ومسؤولة أمام الشعب تتلاشى الأزمة بسرعة[1].

---

[1] بهذه المناسبة نشير إلى أن المطالبة بـ "حكومة مسؤولة" جرت منذ أيام القيصر نيكولاي رومانوف. وتحققت المطالب هذه الحكومة دخلت في تاريخ روسيا باسم الحكومة المؤقتة ولما كان قصب السبق في الإنجاز حيث تمكن كيريفسكي وحكومته من تقويض الإمبراطورية الضخمة خلال 242 يوماً (8 أشهر). المكانة الثانية في سجل المصائب هذا يشغله بحق م. س غورباتشيف فقد استغرق لتحقيق نتيجة مشابهة أكثر من 2400 يوم. راجع كتابنا عن نشاط الحكومة (المسؤولة) في 1917: ستاريكوف لغز الثورة "الروسية".

لا جدل أن الثقة مهمة جداً في القضايا المالية. بدون الثقة لا قروض، ولا تأجيل ولا فوائد مميزة. إلا أن هنالك ما تفوق أهميته أهمية الثقة في القضايا النقدية. وهو النقود ذاتها. فإذا فقدت النقود لا يمكن إقراض أحد مهما كانت الثقة كبيرة ومهما كان الحب والتعاطف كبيرين. تماماً كوجود البنزين في خزان وقود السيارة هو الشرط الأهم لكي تسير السيارة. أما إذا لم تكن لديك سيارة أصلاً فلا معنى لكمية الوقود التي تحضرها لن تذهب إلى أي مكان، دون أن تشتري وسيلة النقل. عندما تفقد النقود تفقد السيولة، لا يتمكن الاقتصاد من العمل. سيستمر الجدل طويلاً دون طائل ما لم نستوضح أمراً واحداً. إذا حدثت أزمة نقص البطاطس، فعلينا أن نبحث عن أسباب عدم وفرة المحصول في الحقول الواسعة ونتبين ما هي الآفة- طبيعية أم اصطناعية- التي سببت فقدان المحصول. كذلك الحال مع النقود فإذا أردنا أن نستوضح أسباب فقدان النقود في كل الأماكن. علينا أن نتوجه إلى المكان الذي ترى النقود النور فيه. وفقط عندئذٍ يصبح سبب الأزمة الاقتصادية الراهنة واضحاً تماماً.

إذن أين هي "الحقول" التي "تزرع" فيها النقود المعاصرة لزمننا؟ لا شك- أنها في الولايات المتحدة الأمريكية.

obeikandl.com